(تفسيرُ الشَّيخِ البرَّاك)

القارئ: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١١٠-١١٥]

الشيخ: لا إله إلا الله.

الحمد لله، يقول -تعالى-: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} الخطابُ لهذه الأمَّةِ المحمديَّةِ، خيرُ الأمم، وفي هذا ثناءٌ من الله على هذه الأمةِ، {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} فجاء في الحديث: (إنَّكُمْ تُوفونَ سبعينَ أمَّةً، أنتُمْ خَيرُها وأَكْرمُها علَى اللَّهِ).

المقتضي لهذه الخيريَّةِ ما وصفَهُم اللهُ به: {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} ليست هذه الخيريةُ راجعةً إلى نَسَبٍ ولا وطنٍ، وإنما راجعةٌ إلى ما ذَكَرَ اللهُ من الإيمانِ بالله وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخر والأمرِ بالمعروف، وهو كلُّ ما أمرَ اللهُ به ورسولُه، والنهيُّ عن المنكر وهو كلُّ ما نهى الله عنه ورسولُهُ، {وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}.

ثم يقول تعالى إن أهل الكتاب {لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا} فأصلُ الخير هو الإيمانُ بالله، هذا هو أصلُ الخيرِ والسعادةِ في الدنيا والآخرة، ولكن أهلُ الكتاب -والسياقُ في اليهود- منهم المؤمنون وأكثرهم كافرون.

{لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} وهذا بشارةٌ للمؤمنين بالنصرِ على أعدائِهم، ولكن كما..، هذا مشروطٌ بالاستقامةِ على دينِ الله والنصر لدينِ الله، {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} [مُحَمَّد:٧] {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [الحج:٤٠] النصرُ للمؤمنينَ إذا تحقَّقُوا بالإيمان وتحقَّقُوا بالعمل الصالح.

{لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ} وهذه الآيةُ في اليهود،

دائمًا ذِكْرُ الغضبِ..، ذِكْرُ الغضبِ في شأنِ أهل الكتاب يختصُّ باليهودِ؛ لأنهم أخصُّ بالغضب، {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٧] المغضوبُ عليهِم هم اليهود، والضالُّونَ: النصارى، وهكذا وُصِفوا في الآيات.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} كلُّ هذه أوصافُ اليهودِ، ولهذا يُعْرَفون بأنهم "قَتَلَةُ الأنبياء"، حتى آخرُهم المسيح -عليه السلام- حاولوا ودبَّروا ومكَروا ليقتلوهُ، ولكنَّ اللهَ حماهُ وأكرمَه ورفعَه، {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء:١٥٧]

ثم قال -سبحانه- مُبيِّنًا أنَّ أهلَ الكتاب ليسُوا على حالٍ سواءٍ، منهم المؤمنُ والكافرُ، وهذا الانقسامُ في ماضيهِم، أما بعد بعثةِ محمَّدٍ فليس فيهم انقسامٌ، إلا من دخلَ منهم في الإسلام فنعم، وإلا فكلُّ مَنْ كذَّبَ برسالةِ محمدٍ من اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم، فإنه كافرٌ وعملُهُ حابطٌ، {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} وهكذا قال -سبحانه تعالى- في بني إسرائيل: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤]